

مقالات في فكرة التقدم

بقلم محمد الناصر النفزاوي

النبي محمد (570-632)

و

القوتان العظميان الفارسية والبيزنطية وملحقاتهما

التقديم:

" تتناول هذه الفصول تطور وضع العرب من القرن الثالث الميلادي الى قيام الدولة العربية الإسلامية أي هذه الفترة التي عادة ما يقع طمسها في البرامج الدراسية فيظهر التاريخ العربي وكأنه وليد القرن السابع الميلادي والحال هي أن أحداث هذا القرن ليست، إذا ما نظر إليها المرء بمنظار التاريخ الإنساني الضارب في القدم، غير أحداث البارحة.

لقد كانت الدول الساسانية والرومانية والحبشية ، وان بدرجات متفاوتة، هي القوى العظمى طيلة هذه الفترة تمثل أولها المعسكر الشرقي وتمثل ثانیتها ، بإعانة من الحبشة ، المعسكر الغربي وكان وضع العرب بينهما من ناحية وضع التابع لهذه القوة العظمى أو تلك ومن ناحية أخرى وضع الشتات المحكوم عربيا بالصراع القحطاني العدناني بل بالصراع الداخلي حتى ضمن هذين التصنيفين العربيين الفضاضين حتى لا نقول الأسطوريين مما يمكن معه القول ، لو كان في إمكان التاريخ أن يعيد نفسه، انه صورة أخت لوضع العرب نهاية القرن العشرين.

غير أن الحروب المتواصلة بين الساسانيين والرومان ثم البيزنطيين انتهت في القرن السابع الميلادي الى حالة نزيف ذهب بقوى القوتين العظميين جميعها ورافق هذا النزيف حيرة عقديّة رشحتهما لما يشبه النزاع الأخير في حين شهد العرب في هذه الفترة ذاتها ولادة وحدة قومية دينية .

إنه لا بد من الإشارة إلى أن القارئ سيلاحظ، ما من شك في ذلك عندنا، الاختلاف الواضح أحياناً بين عدد من التواريخ التي أوردنا وما هو متناول في كثير من الكتب. وسبب ذلك واضح فالفترة موضوع هذه الفصول ما زالت، لأسباب عديدة ، في حكم ما قبل تاريخ عدد من الأمم الأخرى لذلك عمدنا الى نوع من "المفاضلة" بين تواريخ تظهر أحياناً في كتابات المختصين (مثل دائرة المعارف الإسلامية) غاية في التباعد.

الفصل الأول

الصحراء المطوقة

يطلق المؤرخون الغربيون على القرون الثالث والرابع والخامس الرومانية عبارة "الإمبراطورية الدنيا" وهي تشبه في الحضارة العربية فترة حكم المطيع والطائع في القرن العاشر المتسمة بتفتت الحكم المركزي وغلبة العناصر غير العربية على العنصر المؤسس للدولة الأصل ولذلك يمكن تعريبها ، بعد نبذ العبارة الأدبية المضللة " العصر الذهبي " بـ"عصر الانحطاط".

وقد يبرر نهجنا هذا النهج في المقارنة أن الفترتين تعدان فترتي انحطاط عند دعاة القومية الغربيين والعرب على حد سواء. وإذا كان يوجد اختلاف بين العرب والغربيين حول المسألة فهو يقتصر على الديانيين من الطرفين ذلك أن فترة الانحطاط الرومانية مكنت المسيحية من الانتصار في حين يربط الديانيون المسلمون فترة الإشراق الديني السياسي بثلاثين سنة من القرن السابع الميلادي أي

بفترة التحام العروبة بـ الإسلام التأسيسي التحاماً كاملاً. وما ذلك في نظرنا إلا

لطابع الدين الإسلامي الأول الذي يستحيل فيه، رغم أشكال "الاجتهاد" المختلفة، الفصل بين الدين والدولة وذلك لأن "وحدة (العرب) القومية معجزة تعزى لعبقرية الديانة الإسلامية" على حد تعبير علي الحمامي (1). لذلك سنقتصر ، لإظهار الشبه بين ما يسمى بفترة الانحطاط الروماني وفترة الانحطاط العربي ، على الآراء القومية عند العرب والغربيين دون سواهم رغم أن القوميين العرب الكلاسيكيين يؤرخون لبداية الانحطاط عندهم بحكم المعتصم (833-840).
كتب الأمير مصطفى الشهابي في أواخر ستينات القرن العشرين:

"وغلط المعتصم العباسي غلطته المشهورة فأدخل في جنده عددا كبيرا من غلمان الأتراك فأدى ذلك الى استبدادهم بالحكم والى ضعف الخلافة وضياع سلطان العرب حتى في بلادهم أي البلاد السامية العرق ، العربية اللسان والثقافة" (2)

وكتب سامي الكيالي في الفترة ذاتها:

" اختلف الأخوان الأمين والمأمون على الحكم فاستتصر المأمون الفرس على العرب جنود أخيه ، وقتلت الأعاجم الأمين (...) وكان المعتصم ، أخو المأمون ، يشاهد هذا الانقلاب السريع العجيب ويشاهد تطاول الفرس بعد مصرع الأمين ، فراعته أن " تمشي موسى الى ذقنه" وهو في ارتقاب الخلافة، ناهيك أنه قد أرضع طبائع الأتراك من أمه التركية حتى نشأ لا يؤمن بالعروبة (...) فرأى أن يشد ساعده ببني

خؤولته(..) فما أن بوبع حتى أسرع يؤلف جيشا من المرتزقة الأعراب ولا سيما من الفرغانيين والأترك (3)

أما جان بابيلون فقد كتب متحدثا عن انحلال الحكم الروماني الإغريقي في القرن الثالث الميلادي عندما ارتقى عرش روما الإمبراطور الأمازيغي الليبي سيبتيموس سيفيرس (193-211) الذي شاركته زوجته السورية الأصل جوليا دومنا (158-217) الحكم:

" عندما نرى جوليا دومنا تتخذ لنفسها حاشية من المثقفين وتجادل الفلاسفة يمكننا أن نجزم أن هذه الأفضال العقلية ليست ابتكارا وأنها لا بد أن تكون لها أسس صلبة في رأس تمرست مدة طويلة على النظر العقلي بفضل البيئة التي عاشت فيها مما يمكننا من أن نتبين الخطوط الأولى لمأساة مجالها هذه المواجهة وهذا الصراع بين التقاليد الآسيوية العكرة والغامضة والديالتيك الإغريقية النيرة التي طعمتها البراغماتية الرومانية. إن هذا هو ما أمكن تسميته ثأر الساميين المتأخر من الثقافة الكلاسيكية. إن سوريا جوليا دومنا وهي تتحد بأفريقيا سيبتيموس سيفيروس كانت اليد التي حققت هذه الغلبة المشؤومة التي ذهبت نتائجها بإمبراطورية أغسطس وتراجان. لقد تعمدت ابنة باسياموس العمل بثبات ومثابرة على انجاز عملية التفكيك مستترة بعظمة الاشرافية الشرقية الغامضة" (4)

هكذا تحدث قوميان عربيان سوريان عن فساد العنصر التركي الآسيوي فنسبا إليه انحطاط العرب وكأنه يكفي أن يتعرض جسد قوي للدغة زنبور

أو هبة ريح فيموت. وهكذا تحدث قومي غربي عن فساد
العنصر الأمازيغي/ السوري فنسب ، وهو يقلب النتائج أسبابا بتأثير فلسفته
التاريخية العقلانية المجنحة، الى امرأة خراب إمبراطورية كاملة. وما
أقرب هذا التفكير من تفكير من حمل فأرا مسؤولية خراب سد مأرب.

إن أخطر ما يعبر عنه الموقفان القوميان العربي والغربي هو هذا الحديث عن
"هوية" وعن "خصوصية" تشبهان الثوابت أو المعاني المطلقة رغم أن كل شيء
في الحياة يثبت في كل لحظة تهافت مثل هذه المفاهيم.

إن مصدر هذه المواقف لا يمكن أن يكون غير ردود الفعل التي لا تعرف غير
الجموح حتى عندما تتجمل بـ"العقلانية": فصاحب كتاب "إمبراطوريات سوريات"
كان ، حتى وهو يؤكد على سعة اطلاع جوليا دومنا التي مكنتها إما مباشرة أو
عن طريق المطالعة من النفاذ الى فلسفة أوريجينوس الاسكندري (186-254)
وترتليان القرطاجي(155-222) ، لا يكف عن حصر مجالها الفكري في دائرة
التقبل اذ كيف يمكن ، في نظره ، أن يقوى عقل "سوري" على الابتكار؟

إن في التاريخ فترات تبدو أشبه ما تكون بحالات الكسر تنهار فيها قيم قديمة ولا
تتمكن القيم الجديدة من الاستقرار فيصاب التفكير البشري بالفرع: ففي بدايات

القرن التاسع عشر على سبيل المثال أنتجت الحروب النابليونية فختة "الألماني" فكان حربا على القيم الثقافية الفرنسية ولغتها ، وفي أعقاب الحرب الكبرى ظهر من الكتب المؤبنة للحضارة الغربية ما لا يشبهه غير ما ظهر بعد الحرب العالمية الثانية. وفي تسعينات القرن العشرين ثم خاصة منذ بداية سنة 2007 عقب انهيار المنظومة الاشتراكية أولا واختلال توازن الاقتصاد الرأسمالي العالمي ثانيا حالة من الفزع الفكري أصبح المرء أثناءها لا يتسرع في التنبؤ بما يمكن أن يكون عليه مستقبل الإنسانية القريب..

مثل هذه الحالات عرفها القرن الثالث الميلادي فلقد تخشب المجتمع الروماني وتخرثر الى حد دفع مثقفي العصر الى البحث عن بدائل جديدة فاتسع مجال الغنوصية وانتشرت المسيحية في " السرية " أكثر مما كانت عليه في القرنين السابقين. ولم تتج الإمبراطورية الساسانية من حالة الشك تلك فظهر النبي ماني (قتل عام 276) يدعو الى دين جديد يعوض المزديّة- الزرادشتية. وحول الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الساسانية كان يتمحور جزء كبير من العالم القديم.

أما على المستوى السياسي فقد غلبت العناصر "الهجينة" على الدولة الرومانية وكثرت حالات سيطرة العسكريين على السلطة، ولم يقتصر الامتزاج على الأجناس فقط حتى يمكن تفسير الانحطاط عنصريا بل شمل الدين واللغة أي كل أشكال الحياة.

كتب بابيلون في ذلك:

" في زمن أتاح لنا تبين الشروخ الأولى المنبئة بخراب روما نرى في تولى الأفريقي سبتيموس سيفيروس الحكم ثأر الروح السامية القديمة من روما التي داست هذه الروح بالأقدام وردا من القدر على لازمة كاتون " Dalenda Cartago
(ولكم في تدمير قرطاج حياة)(5).

وهل يحتاج المرء الى القول إن الأفريقي الذي يتحدث عنه بابيلون إنما هو الأمازيغي الليبي سبتيم سيفير الذي عفت الرومنة اسمه البربري الأصلي ؟

إن العائلة الأمازيغية الليبية - السورية ستحتكر عرش الإمبراطورية الرومانية في روما مع ابني سيبتيموس سيفيروس وجوليا دومنا وهما الأخوان الخصمان كاراكالا (211-217) وجيتا (211-212) وكذلك مع ايلاجلابوس (الجبلى) (218-222) حفيد جوليا ميزا أخت جوليا دومنا ومع اسكندر سيفيروس (222-235).

كتب فيليب حتي منتصرا لهذه العائلة السورية الأمازيغية الأفريقية التي حكمت روما طيلة نصف قرن:

"تمتعت أم كركلا ، واسمها جوليا دومنا ، بكثير من المواهب والجمال. وهي ابنة رئيس

الكهنة في هيكل سامي في حمص. وقد تعرفت الى زوجها سبتيموس سيفروس عندما كان قائد جيش في سوريا. وهي تظهر على النقود التي سكها سبتيموس في جزء من هيكل. وهذه النقود تشبه تلك النقود التي سكها إمبراطور روماني جاء بعده هو فيليب العربي (244-249) الذي كان من أصل سوري وولد في قرية من قرى حوران. كانت جوليا تفاخر باللقب الذي لقيت به (أوغسطا) أي العظيمة الجلييلة ، فراحت تعاون زوجها في إدارة الحكم. وبعد موتها تسلمت دفة الحكم وأدارته بمقدرة فائقة كما أظهرت حنكة في السياسة بزت بها حنكة زوجها وإدارته. وكان عندها مستشار قريب لها اسمه بابينيان ، كان حقوقيا بارزا وأستاذ القانون في مدرسة الحقوق في بيروت (بيريتوس). وقد ضم مجلس جوليا المؤرخين وطلاب الحكمة وغيرهم من رجال العلم مثل الطبيب الإغريقي الشهير جالينوس. وبعد وفاتها تسلمت الحكم أختها الصغرى التي فاقتها قدرة : إنها جوليا ميزا ، جدة ايلاجلابوس ، تخليدا لاسم الإله سامي في حمص ، وجدة اسكندر سيفروس الذي ولد في عرقا- لبنان وهو آخر وأعظم إمبراطور من هذه العائلة " (6).

وإذا كان فيليب حتي، لشاميته ، قد ركز أساسا على العنصر الشامي في هذه العائلة المالكة فان الأمازيغي علي الحمامي ، لأمازيغيته ، نحا عكس هذا النحو فركز اهتمامه على العنصر الأمازيغي فيها:

" ظل الصنف الغالب عددا (يقصد من الأمازيغ) متشبثا بأفريقيته وذلك على الرغم من أن

عددا

من أفرادهم تمكن من تقلد المناصب العالية فسبتيم سيفير، إمبراطور تشريع الشغل المنصف لم يكف، وهو يعيش في القصور الرومانية الفاخرة، عن تذكر لبيتيس (أي لبدة اليوم شرق طرابلس الغرب)، مسقط رأسه ولم يتمكن أريج أيك نهر التيبير من أن يسليه عن الواحات ذات الشذا البري التي كانت مسرح ألعابه أيام الصبا لقد كانت أفريقيا، بتوليه الحكم، تبسط على روما يدا طالب كاتون سابقا بيترها. أما كاركالا فقد فاق أباه تجديدا جريئا إذ فرض على الرومانيين إقامة الشعائر لحنبل وأمر بأن تشاد في روما نصب نصفية للمنتصر في كان يؤدي تحتها الكهنة الشعائر القربانية" (7)

وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن كل حضارة مسيطرة تقرض سماتها على من تضم من أقوام ومن ضمن ذلك الأسماء إما بالإكراه وإما رغبة من "المغلوب في تقليد الغالب" ولذلك فنحن لا نعرف أسماء هؤلاء الأمازيغ الأصلية فلا يجب على المرء، إذن، خاصة إذا كان داعية أمازيغيا جذريا، أن يقسو في أحكامه على النبي محمد و أتباعه الأوائل لأن هؤلاء، تاريخيا، ماتوا قبل أن يسموا حتى باسم الأمازيغ كما أن الأمازيغ لم يسموا به وبهم أو بما يسمى بالفترة الراشدة بدليل أن عمر عقبة بن نافع على سبيل المثال (631-683) لم يكن ليتجاوز عند موت النبي... السنة الواحدة.

فقصة الأمازيغ، إذن، يجب أن تتحصر فصولها في علاقاتهم بالدولة الأموية وهذه الدولة كتب عنها أحد أعلامهم المعاصرين وهو علي الحمامي:

"بعد اغتيال عمر وتولي عثمان الخلافة - وكان عندئذ شيخا مسنا - استولى قدماء تجار الأوثان - الذين كانوا آخر من أسلم وهم باقون على ما كان في أنفسهم من الحذر والحيطه - على مقاليد الأمور، وأعادوا تشكيل الإسلام على شاكلة ما كانوا عليه من زيف. وكل الناس يعرفون نتيجة ذلك لقد أفرغ الدين من مضمونه الاجتماعي والإنساني" (8)

ليضيف:

"لقد كان ينبغي، بعد أن تم القضاء على الحجارة المؤلهة، أن يتعرض من استقادوا منها للعقاب. ولكن محمدا كان رحيمًا تجاه المهزومين. وفضلا عن ذلك فإن حياة النبي جميعها لم تكن غير قصيدة من السخاء بليغة سامية. ولقد كان هذا، تاريخيا، غلطة" (9)

ليستدرك محذرا:

" إن القرشيين، وسواء أكانوا أمويين أم عباسيين أم علويين ، لم يمتنعوا البتة عن تشويه الحقيقة. إنني ، بالتأكيد ، لا أظن لا في هذه السلالة ولا في تلك فكل الخلافات أدت ، عموما ، لانتشار الإسلام وحضارة الثقافة الإسلامية ، خدمات لا يكون المرء منصفا إن ضرب صفحا عنها. ثم إن ما يجب أن تعرفه هو أن تاريخ الإسلام إنما هو كتلة واحدة وفي إمكان المرء أن يحلله وأن يخضعه لنقد مدقق، لا أن يجزئه أو ينظر إليه من وجهة نظر متحيزة. ومثل هذا الأمر لا يمنعنا، مع ذلك، من أن نتذكر أن غالبية القرشيين شوهاوا الإسلام لسوء الحظ" (10)

أفلا تشبه هذه "الصورة" الحمامية شبحا كبيرا "الصورة" التي رسمها عن الجزائر على سبيل المثال لادعاة الأمازيغية الجذرية فحسب ولكن كذلك أغلب الجزائريين الذين إن اختلفوا مشارب سياسية فقد وحدت بينهم فكرة "جزائر الثورة" بهالتها المعروفة و"جزائر الاستقلال" بصنعتها العسكريين والبيروقراطيين والتجاربيين انطلاقا من ثنائية قد تكون شالة الخ؟

بل إنني أذهب الى حد لوم من يلوم منهم الخليفة العربي الأموي عبد الملك بن مروان (حكم بين 685 و 507)الذي اشترط على كل من يطلب من الدولة خدمة أن يبدأ بتعريب اسمه تماما مثلما فعل الرومان الذين لتينوا الأسماء الأمازيغية. فهذا الأمر يكاد أن يكون طبيعيا لا قديما فحسب ولكن حتى في أيامنا هذه:ففي البلدان الغربية وفي أمريكا نجد عددا غير محدد من

المهاجرين إليهما من مختلف البلدان ومنها العربية يجتهد في تغيير اسمه طلبا للاندماج. ونحن نقول انه ليس على هؤلاء حرج.

أما القضية الشائكة فهي هذه التي تتصل بما سمي قديما بـ"الشعوبية" أي هذه النزعة ، عند عدد من المغلوبين، الى رفض الاندماج في الحضارة الغالبة إما عن عجز أو عن شبه قدرة أو تخطيط ولذلك رأينا بابيلون لا يتمكن من فهم الأسباب البعيدة التي تكمن وراء هذه "الشعوبية" اذ هو يردها الى "عجز عقلي" بكل ما تحمل هذه العبارة من غموض فقد تحدث في غيظ عن آثار هذا الامتزاج الذي لم يقتصر (وهذا أمر طبيعي) على الأجناس بل تعداه الى اللغة والمثل السياسية والعسكرية حتى ضمن الطبقة الحاكمة وحواشيها:

"كانت لغة عائلة الإمبراطور الجديد الأم ولغته هو أيضا اللغة البونيقية أي هذه اللغة التي لا تربطها صلة من الصلات باللغة اللاتينية ، زد على ذلك أن هذا اللسان ذاته تحرف نتيجة اندماج طويل في الأهالي الليبيين (أي حرفته الـ/ تمازيغت). ولقد أشار سالليست عند حديثه عن يوغرطة الى هذه اللغة المحلية المصطبغة بالبربرية. ومن ناحية أخرى فان سيفيروس قد يكون صرح اثر احتفال أقيم على قبر حنبعل الذي بنى عليه حسب زيتريس نصبا من المرمر تخليدا "لأعظم رجل حرب في العصور القديمة" ، أنه يعتبر نفسه تجسيدا للقائد القرطاجني الذي تكفي ذكراه وحدها لإثارة هلع الجمهورية" (11).

فالاختلاط الجنسي واللغوي والفلسفي إنما كان نتيجة توسع دولة كان الحكم فيها محصورا في نواة عرقية ضيقة ثم أصبحت أطرها القديمة عاجزة عن استيعاب هذا التوسع وتأطيره. كذلك سيكون مصير العرب الفاتحين الأوائل الذين لم يكونوا يتجاوزون زمن التوسع في القرن السابع الميلادي مئات من الآلاف لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة يوم تبتلع دولتهم العربية الإسلامية الناشئة أكثر مما كان في وسعها أن تتمثل من أجناس ولغات وفلسفات: فما يسمى بالانحطاط

الروماني في القرن الثالث والانحطاط العربي بعد ثلاثة قرون من قيام الدولة العربية الإسلامية إنما هو أمر طبيعي لا يمكن أن تدفعه الإيديولوجيات القومية أو الدينية لأنها لا تفعل أكثر من مناطقة قوانين الطبيعة الاجتماعية الإنسانية عوض فهمها.

على أن أهم ما يمكن أن يدحض رأي القائلين إن العامل الخارجي ممثلا في غلبة أجناس أجنبية على الأمم النواة هو سبب "انحلال" هذه الأمم (والانحلال هو في الحقيقة تغير في بنياتها الأولى) لا إحدى نتائج هذا "الانحلال" هو تجربة الدولة البارثية التي أسسها مهرداد الأول في القرن الثاني قبل الميلاد وستسقط بعد حكم دام أربعة قرون بسبب ضربات أردشير الساساني في الثلث الأول من القرن الثالث (244): لقد قامت هذه الدولة في خراسان (12) ولذلك يطلق عليها بعض المؤرخين اسم الإمبراطورية البارثية ثم توسعت في فترة ما فهمنت على الهضبة

الإيرانية جميعها الموزعة اليوم سياسيا بين الدول الثلاث فارس في الغرب وأفغان/ستان في الشمال وغرب باك/ستان في الجنوب الشرقي أي ما يسمى بلوش/ستان(13).

هذه الدولة بدت في الثلث الأول من القرن الثالث أشبه ما تكون بالجسم المفكك الأوصال يتقاسمه الإقطاعيون ورجال الدين المجوس. ولولا الضعف القاتل الذي كانت عليه الإمبراطورية الرومانية في هذه الفترة لأمكنها أن تذهب بخصمها القديم. ففي السنة التي كان فيها كاركالا في روما يجهز على أخيه وشريكه في الحكم جيتا(212) كان أردشير ، حفيد ساسان وابن بابك اللذين انفرد بيتهما بوظيفة كبير القائمين على خدمة معبد النار في اصطخر يتمرد على ملك مقاطعة اصطخر ويضم إليه شيئا فشيئا مقاطعات ملوك الطوائف المجاورة ليتغلب في نهاية هذا المطاف الديني السياسي على ملك ملوك الطوائف نفسه ، أردوان الخامس سنة 224 ويؤسس دولة ساسانية لن تتمكن من القضاء عليها بعد عمر امتد خمسة قرون غير...الدولة العربية الإسلامية الناشئة.

إن حالة التحلل الداخلي التي وصفنا لم تكن محصورة في القوتين العظيمين الشرقية والغربية لذلك العهد بل كانت تشمل ملحقاتهما ومن ضمنها تامزغا، بلاد البربر الذين وصفهم علي الحمامي بأنهم كانوا في هذه الفترة :

"يحيون حياة بسيطة في مجتمع أبوي. وفي ما وراء الأشرطة الساحلية أو حول عدد من حصون الداخل لا تكاد تلمح إلا نزعات غامضة الى السلطة الإقطاعية. فبلاد البربر كانت تتوارى في غبار من الجمهوريات الصغيرة القليلة. ولم يكن الأمغار ، بالضرورة ، رئيسا وراثيا يختص بنفوذ لا يقبل المنازعة. لقد كان، وهو الذي يعين مندوبا عليهم ما بقي يحظى بثقتهم، قابلا لأن يقاضى. وإذا ما حدث، في حالة خلاف، أن تملكته فكرة إبداء بعض المقاومة، فإن السيف يصبح، عندئذ، هو الفيصل. وإذاك يتغلب عموما قانون القبيلة على الدوافع الفردية. كانت هذه الديمقراطية المساواتية العاتية تحدد الحياة الاجتماعية البربرية وتسمرها في وضع فوضى لا مزيد عليها" (14)

وكذلك بلاد العرب، في المشرق ، الواقعة بين المطرقة الإيرانية والسندان الروماني والتي إذا كانت تتحدد جغرافيا بـ "العربية" فهي سكانا ونمط عيش لا يمكن أن تفهم إلا باعتماد التصنيف السوسولوجي (بدو/حضر) الذي ليس في نهاية التحليل غير تعصير للتصنيف السلالي القديم عدنان/قحطان المرادفين للجدين الأمازيغيين ماذغيس (الأبتر) وبرنس.

كتب ابن خلدون الذي يحب أن ينتسب الى كندة القحطانية الحضرية في الصنف الأول منهما أي البدوي:

"وكانت قبائل مضر مع ذلك بل وسائر العرب أهل بغي والحاد وقطع للأرحام وتنافس في

الردى وإعراض عن ذكر الله فكانت عبادتهم الأوثان والحجارة وأكلهم العقارب والخنافس والحيات والجعلان وأشرف طعامهم أوبار الإبل إذا أمروها في الحرارة والدم" (15).

إن نوع حياة القوم من مأكّل ومشرب ومنكح يدخل ضمن القولة "من جاع أكل ما وجد" بكل المعاني التي يمكن للمرء أن يولدها منها. أما العلاقات الاجتماعية (البغي وقطع الأرحام والتنافس في الردى وواد البنات...) فلقد سبق أن عبر عن روحها شاعر ينتمي الى هذا الصنف هو زهير بن أبي سلمى الرياحي في قوله :

ومن لا يذ عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

لقد كانت تلك العلاقات علاقات أقوام لم تتمكن بعد ، وحتى القرن السابع الميلادي أي البارحة بالتاريخ الإنساني ، وعلى عكس ما كان عليه الإيرانيون والرومانيون وحتى تابعيهم من العرب القحطانيين مشرقا ومن الأمازيغ مغربا، من بلوغ طور التهيؤ لتقبل نشوء الدولة بما يلائم مثل هذا القصور من نظرة الى الأشياء تتسم بالتجزؤ البالغ (عبادة الأوثان والحجارة التي يوافق عددها تعدد القبائل تماما كما يوافق الوجدانية بمراحلها المختلفة تقلص القبلية ومركزية الدولة المتزايدة) لأن بيئة القوم المادية لم تكن تسمح لا بنشوء الدولة ولا ببقائها، إن نشأت، في

مواطنها الأصلي ولا بإقامة علاقات اجتماعية على غير ما عرفوا منذ أقدم العصور. ولذلك فلن يكون للعدنانيين شأن إلا عندما يبدلون مع قيام الدولة العربية الإسلامية، التي كانوا أكثر العرب ضراوة في محاربة النبي محمد الداعي إليها ورفاقه ، بيئة ببيئة ويتحولون من بيئتهم الأصلية الى بيئة جديدة (الشام وبلاد الرافدين مشرقا وتامزغا ثم الأندلس مغربا) فيكون في ذلك بدوهم السياسي الديني ونهايتهم العرقية.ومن لم يفعل ذلك منهم (وكيف يمكنه ذلك ؟) فقد بقي حتى اليوم، فعلا لا قولاً، وذهنية لا عرفاً، على ما كان عليه أجداده قبل قيام الدولة العربية الإسلامية.

أما عن الصنف القحطاني من العرب فقد كتب ابن خلدون :
" ولم يكن في العرب ملك إلا في آل المنذر بالحيرة للفرس وآل جهينة بالشام وفي بني حجر (من كندة) على مضر والحجاز" (16).

ويفسر ابن خلدون انحصار الملك قبل قيام الدولة العربية الإسلامية في القرن السابع في القحطانيين بنوع الحياة التي كانوا يحيون. وهي حياة ،إن لم تكن مناقضة مناقضة تامة لما وصف من حياة العدنانيين (لاستحالة

التناقض التام في كل ما يمت بصلة الى حياة البشر المتجاورين خاصة)
،أقرب الى الاستقرار في الأرض بكل ما يعني ذلك من توفر ظروف نشأة
الدولة أو على الأقل بذورها الأولى وما يتبع ذلك من مؤسسات يصعب
الحديث عن وجودها عندما لا يتوفر حد أدنى من ظروف الحياة المادية
فما أشبه هذا الوضع القحطاني العربي بالوضع الأمازيغي الذي
سمح بظهور إمارات ماسينيسا ويوغرطة ويوبا الثاني في بلاد البربر قبل
قرون.

هكذا يبدو، إذن، وضع القحطانيين العرب ، شأنهم في ذلك شأن الأمازيغ ،
شائكا اذ هم أكثر حضارة من العدنانيين لذلك ملكوا عليهم وهم أقل
حضارة من الأمم المجاورة لذلك قاموا بدور الحزام الذي يقى هذه الأمم
من غزوات من سيصبحون "إخوتهم" منذ هجرتهم الى المدينة القحطانية
واختلاط "المهاجرين" العدنانيين ب"الأنصار" القحطانيين في القرن
السابع الميلادي.

لقد كان أردشير وهو يوسع إمبراطوريته يلامس في الآن نفسه المنطقة العربية الخطيرة التي كان الرومان قد ضمنوا فيها منذ مدة ولاء الإمارة التدمرية. أما هو فلم يكن له فيها ولاء عربي مضاد يحقق التوازن بين المعسكرين قريبا من مصب دجلة "الذي كان يهيمن عليه آنذاك عرب جاؤوا من عمان هم الرواد الذين مهدوا الطريق للقبائل العربية التي ستستقر في الحيرة غرب الفرات على ما يبدو عند نشأة الدولة الساسانية بالضبط" (17). نقول ستستقر لأن أردشير سيرى في هؤلاء العرب اليمنيين أي القحطانيين وسيلة يمكن أن تقي حدود الإمبراطورية الساسانية من غزوات البدو العدنانيين في نجد والخليج:

"نشأت حوالي هذه الفترة في ما وراء نهر الفرات الذي يتجه في هذه المنطقة نحو دجلة ويقترب منه حتى مسافة 50 كلم تقريبا مملكة عربية خاضعة للإمبراطورية الساسانية هي مملكة الحيرة التي ستصبح سورا يقي الإمبراطورية من غزوات البدو الرحل" (18).

هذه الإمارة كانت تحتاج للقيام بدورها الى عون من القبائل في المنطقة فتخبرت لها من ضمنها بني يربوع وأسندت إليهم وظيفة الردافة:

"إن وظيفة الوزير (الردف) في مملكة الحيرة قد تكون إرثا في عائلة بني يربوع تعويضا لها عن التنازل عن المطالبة بعرش الحيرة. وبهذا يكون النظام الإيراني قد تجاوز الحدود المعقولة . وما كان ذلك ليحصل إلا في دولة صغيرة كدولة الحيرة تقع تحت رقابة إمبراطورية كبيرة وفي حمايتها" (19).

ولقد كان منصب الردافة هذا بما يوفره من مكانة اجتماعية لليرابيع من تميم ومن منافع اقتصادية حريا بأن يربط بني تميم الخليجين بالخميين برباط وثيق:

"فالردف يجلس على يمين الأمير إذا شرب ويردفه إذا ركب ويخلفه إذا غزا. وكانت له إتاة على كل من في طاعة الأمير. وكان بنو يربوع التميميون يفخرون بأنهم أرداد الملوك" (20)

هكذا تفتنت السياسة الساسانية منذ قيام الدولة الجديدة في الثلث الأول من القرن الثالث الميلادي الخطر العربي الكامن فمنح أردشير القبائل الأزديّة واللخمية النازحة من اليمن الى الحيرة التي تخضع للحماية التدمرية "استقلالاً ذاتياً تألفا للعرب وتأميناً لسلامة بلاده التي كان البدو لا يفتؤون يشنون عليها وعلى

القوافل التجارية غاراتهم. ومن ثم تحولت المخيمات الى الحيرة مدينة العرب يقوم عليها جذيمة الأبرش (التتوخي) بوصفه أميراً نائباً عن الملك الفارسي أردشير" (21). وبذلك ربط الساسانيون اللخميّين برباط ولاء دائم ونظموا علاقاتهم بهم تنظيمياً محكماً فكان تاج الإمارة للخميين ومنصب الرديف (الوزير) إرثاً في بني يربوع. أما البحرين التي ستضم الى الإمبراطورية الساسانية زمن سابور الثاني (310-379) فسيحكمها حاكم عربي يعينه ملك الحيرة على أن يستعين بأحد كبار الموظفين الساسانيين. ويقوم في البلاط الساساني بصورة دائمة مكلف بالشؤون العربية وبالترجمة يتقاضى مرتبه من ملوك الحيرة" (22).

إن هذا الارتباط السياسي التتوخي (أزد/لخم) وتبعاً لذلك التميمي بالساسانيين هو الذي يفسر استقرار الملك في هذه القبيلة العربية القحطانية منذ عهد أردشير في القرن الثالث الى عهد كسرى أبرويز الذي سيقتل النعمان بن المنذر في مطلع القرن السابع الميلادي وهو الذي يفسر استماتة اللخميّين في الدفاع عن أولياء نعمتهم من الساسانيين.

هذه السياسة الساسانية التي تتمثل في اتخاذ العرب القحطانيين درعا
حامية للحدود الساسانية لم تظهر نجاعتها قبل الثلث الأخير من القرن
الثالث الميلادي بسبب نمو دور مملكة تدمر الطموحة. وفعلا فلقد بلغ من
شأن هذه الإمارة (المملكة) أن استغلت فترة انتقال الحكم في إيران من
أيدي البارثيين الى أيدي الساسانيين وما صاحبها من صعوبات داخلية
وكذلك وضع الرومان الصعب في النصف الأول من القرن الثالث ليبيدي
أميرها أذينة سييتموس (قتل عام 267) طموحه الى الاستقلال بمنطقته
وتوسيعها مقدما بذلك لتجربة النبي العدناني محمد بعد ذلك بقرون ثلاثة ،
ولكن بنجاح هذه المرة.

وعندما اندلعت الحرب بين سابور الأول (241-272) وفاليريان (253-260)
سنة 260 وانتهت بغلبة سابور وأسر الإمبراطور الروماني في مدينة الرها
(هي اليوم ضمن تركيا) ، انضم أذينة الى الرومان واعترض طريق
عودة سابور وألحق به هزيمة ثقيلة وأجبره على التراجع حتى ما وراء
الفرات وسيطر على نصيبين (هي اليوم ضمن تركيا) وسوريا وكل
المناطق الرومانية في آسيا الصغرى

فمنحه الإمبراطور غالين (253-268) لقب "الثاني" في الشرق لقاء تبعية شبه صورية لروما. ولن تتجح محاولات الساسانيين حتى سنة 265 في الفت من عضد تدمر.

إن أذينة سيقتل سنة 267 وقد يكون لزوجته باث زيبينا (زنوبيا عند الرومان والزباء عند العرب ومعنى العبارة عند البعض ابنة العطاء وعند البعض الآخر ابنة التاجر والمعنيان متقاربان اذ يفيدان العطاء والوفرة)ضلع في قتله. وستتولى زنوبيا الحكم مشركة ابنها "وهب اللات" في تسيير شؤون الإمارة فيتلقب بلقب أغسطس إعلانا منه عن الاستقلال التام عن روما(271) وتعد أمه حلفا مع سابور فيثيران غضب الإمبراطور الروماني الجديد أورليان (270-275) فيهجم بقواته على تدمر ويأسر الملكة لتحمل الى روما فتموت بعد عام من الهزيمة(272).

إن المرء، وهو يتصفح التاريخ الذي وصلنا في شكل غير أسطري تماما، لا يكاد يعثر على نساء كثيرات حاربن فملكن ومن هؤلاء الزباء في بلاد العرب في القرن الثالث والملكة الأمازيغية الزناتية المحاربة في تامزغا التي اشتدت في مقاومة التوسع العربي في النصف الثاني من القرن السابع على تقدم سنها بل الإيقاع بعدد من القادة العرب في كمائن بررت أن يطلقوا عليها صفة الداھية وهي صفة تحولت الى اسم تعرض لكثير من التحريف.ولقد وصفت كذلك، لأنها لم تكن تأخذ لا بالديانة اليهودية أو المسيحية لبعدها قوما عن المدن المهجنة، بأنها كانت

تميل الى الكهانة تشبيها لها بعدد من النساء اللاتي قاومن في الجزيرة العربية دعوة النبي العدناني محمد مثل سجاح التميمية المسيحية(م 675) .

كتب فيليب حتي عن زنوبيا بلهجته التمجيدية التي لا يشبهها غير لهجة الكتاب الأمازيغ عندما يكتبون عن بطلتهم القومية:

"قبضت على زمام الحكم بيد من حديد فنظمت البلاط على نمط بلاط ملوك الفرس وأحاطت نفسها بكل مظاهر الإلهية والجمال وادعت أنها تمت بصلة النسب الى شبيهتها كليوباترة المصرية لقد تعهدت زنوبيا الحضارة الإغريقية ورعت اللغة اليونانية التي درستها على يدي أستاذ فيلسوف شهير اسمه لونجينوس الذي أصبح فيما بعد مستشارها. وبعد أن بسطت سلطتها على جميع أنحاء سوريا وشمال الجزيرة العربية والجزء الشرقي من بلاد ما بين النهرين، حشدت جيوشها ووجهتها نحو مصر ، حيث أقامت في مدينة الإسكندرية حامية تدمرية ثم اتجهت نحو الأناضول وتوغلت داخل البلاد الى أن بلغت أنقرة.وفي نشوة انتصارها أعلنت إلغاء الوصاية الرومانية على بلادها وأعلنت استقلال مملكتها استقلالا تاما ولقبت نفسها بالعظيمة "أوغسطا"(23) .

انه علي هنا أن أفتح قوسين لأشير الى عدة أمور:

أولها أنني لا أتمكن من قراءة شاهد مثل الشاهد الذي سبق إلا وأتذكر الداعية الشامي الى القومية السورية أنطون سعادة (1904 – أعدم 1949) وكتاباتة . ولقد كان سعادة يقسم "العالم العربي" الى عوالم أولها هو مجال دعوته أي سوريا الطبيعية وجزء من العراق ولذلك كانت دعوته عرقية ثقافية لغوية أي لا- دينية وثانيها العالم المصري السوداني a- religieuse وثالثها الجزيرة العربية ورابعها بلاد المغرب أي تامزغا . وقد برر تقسيمه باختلاف الذهنيات حتى لا نذهب الى أكثر من ذلك .ومن يتحدث عن أنطون سعادة فعليه أن يتحدث عن الأمازيغي علي الحمامي الذي عبر في "ادريس رواية شمال أفريقية" عن دعوة قومية مغربية لا شرقية ولا غربية وعن نجم شمال أفريقيا ومن ثم عن الحركة الثقافية الأمازيغية بصفة عامة . هذه الحركة الأمازيغية تسلك سلوك فيليب حتي في التعظيم من شأن من ترى أنهم(هن) أجدادها من الأمازيغ .وفي مثل هذه المواضيع لا يهم ما يدعى أنه حقيقة تاريخية لا إجماع حولها بقدر ما يهم تصور هؤلاء الدعاة التاريخ وعقيدتهم القومية .

ثانيها الإعلاء ، ضمن هؤلاء الأجداد، من شأن النساء البطلات التاريخيات لما ترمز إليه النساء "المذكرت" (بفتح الكاف وتشديدها مع التحفظ على تعريب هذه الكلمة) اللائي عشن قبل القرن السابع الميلادي

أي في الفترة قبل الإسلامية . وهذا الأمر ليس بالبسيط إذ قد يحدو البعض إلى تفسير ذلك بأن نساء الإسلام إنما كن أقرب إلى صورة نساء "الحريم" فلا يمكن على سبيل المثال إذا أخذنا بمثل هذا المذهب أن نرى في عائشة "أم المؤمنين السنة" (614-678) مجابلة الداوية الأوراسية المحاربة غير "مستطبعة بغيرها" أو في فاطمة الزهراء (606-632) غير "ضحية" حقيقية للايدولوجيا الشيعية أفلم يكتب علي الحمامي في زوج النبي أنها كانت يوم أقحمت نفسها في السياسة زمن علي (599/600-661) حائكة "دسيسة" (24) وفي الثانية نقصد زينب بنت النبي محمد التي ماتت في التاسعة والعشرين من العمر أنها:

"أثرت أن تعيش مغمورة ، بعيدة عن الأضواء . وهي وان كانت بنتا لطيفة وزوجة مخلصة وأما وفيه متفانية، فان هذا لم يحل دون تحولها ، بعد موتها ، إلى جدة لملايين الدجالين من كل جنس وطبع" (25).

ثالثا: اجتهدت السياسات العربية خاصة منذ منتصف القرن العشرين في الظهور في مظهر البلدان الرأسمالية الغربية القاطرة علميا وتقنيا التي نزلت المرأة، نتيجة الحربين العالميتين من ناحية وتطور الفردية فيها من ناحية ثانية، في "التظرف" فإذا بكل واحد من هذه البلدان يعرض

"سلعته" النسائية الرئاسية والملكية تسويقاً دعائياً ويتبنى عبارة " سيدة هذا البلد أو ذاك الأولى" بغض النظر عن محتوى "دماغ" هذه السيدة الأولى. ولقد كان من نتائج ذلك أن رد عدد من التيارات الفكرية السياسية على هذا بإبراز صورة أخرى للمرأة مغايرة وصلت الى حد معاداة حتى صورة المرأة مثلما تود الحركة النسوية تكريسها.

وأيا كان الأمر فإنه ليس في إمكان المرء ألا يتنبأ من الآن بأن مثل هذه الحركة سوف يكون من نتائجها إعادة النظر في قضايا عديدة تتصل بلون الإسلام في مختلف المناطق الإسلامية وكذلك بالتكتلات الاقتصادية السياسية في منطقة المتوسط.

لقد خلف سقوط تدمر سنة 273 ، إذن ، فراغاً كان لا بد من أن تملأه كيانات سياسية قحطانية بديلة ولذلك شهدت المنطقة جميعها قيام توازنات جديدة: ففي جنوب الجزيرة تأسست في اليمن الدولة السبئية الثانية حول الملك شهر يهر عث بين 272 و 310 الذي تلقب بملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة رمزا منه الى توحيد مجموعة الإمارات اليمنية المتناحرة وتصدياً للحبشة التي تعاقبت غزواتها اليمن بداية من 281. أما اللخميون فكانوا أكبر المستفيدين من انهيار تدمر.

لقد ناصر اللخميون الساسانيين في حربهم ضد أذينة سنة 260. وإذا كان الساسانيون منوا بهزيمة في هذه الحرب فان الحيرة فقدت مؤسس الإمارة فيها جذيمة الملقب بالأبرش وعندما خلفه في الحكم ابن أخته عمرو بن عدي (260-273) كانت فكرة الثأر من التدمريين شاغله الأول. وها هي تدمر تسقط في أيدي الرومان الذين حولوها الى أثر بعد عين في الوقت الذي ملك فيه في الحيرة امرؤ القيس بن عدي (272-328) هذا الذي مد سلطانه مستغلا الفراغ على مناطق شاسعة تمتد من الحيرة الى نجران كما أثبت ذلك نقش على لوحة قبره فوق جبل الصفا قرب دمشق عثر عليه المستشرق الفرنسي رينيه سنة 1921 وهذا نصه بالنبطية نقلا عن النجار:

"اتي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر التج و ملك
الأسدين ونزر وملوكهم وهرب مذ حجو عكدي وجا بزجي في حبح نجرن
مدينت شمر وملك معد ونزل بنيه الشعوب وؤ كلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه عكدي ، هلك سنة
323 يوم بكسلول بلسعد ذو ولده (26)."

وسنة 323 بتاريخ مدينة بصرى توافق 328 للميلاد. هذا النقش يسمى نقش

النمارة وهو يفيد أنه حاصر نجران عاصمة شمر السبئي كما أنه ملك العرب كلهم وخص أسدا ونزارا وملوكهم بالذكر ليفيد اتساع ملكه وقوة سلطانه التي أخضعت قبائل معد وبعض قبائل الجنوب الى جانب محاصرته نجران ، وكان عليه أن يوزع بنيه لملك هؤلاء وقد فخر بأنه لم يبلغ ملك مبلغه (27).

إن السؤال الذي ليس في امكان المرء ألا يطرحه هو: لم لم تظهر منذ هذه الفترة دولة عربية تستغل حالة اللهاث التي أصبحت عليها القوتان العظيمان وكان لا بد من انتظار ثلاثة قرون أخرى حتى يحقق النبي العدناني محمد ما عجز القحطانيون عن تحقيقه في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع؟ وهل يمكن أن نأخذ في هذا الموضوع بما كان علي الحمامي يرى من أن العرب كانوا ، بسبب ذهنيهم العشائرية، يفتقرون الى "الروح القومية" ؟ (28) وإذا صح ذلك في ما يتصل بالعرب أفلا ينطبق ذلك على سكان تامزغا؟

انه إذا كان من حق المرء أن يطرح أسئلة مثل هذا فعليه أن يحذر من المضاربات الفكرية لأن في التاريخ قوانين وكيمياء تستعصيان في أغلب الأحيان على الإدراك.

إن ما تجب ملاحظته ، نهاية هذا الفصل ، هو أن هذا الأمير اللخمي سينضم، لأسباب لا إجماع عليها ، الى الرومان ضد الساسانيين فتفقد هذه العائلة العرش لمدة غير محددة مما أحاط تاريخ اللخمييين في القرن الرابع بالغموض. على أن ذلك لا يغير كثير شيء من الصورة العامة للمنطقة وهي صورة الجزيرة العربية المطوقة بقوتين واحدة قحطانية تابعة والأخرى حامية وهي إما ساسانية أو رومانية وفي أحشائها كانت القبائل العدنانية أساسا لا تعرف للوقائع الحربية أي ما يعرف ب"أيام العرب" بداية ولا نهاية.

المصادر والمراجع:

1. علي الحمامي ، إدريس رواية شمال أفريقية تعريب محمد الناصر النزاوي ، تونس ، المركز الوطني للترجمة ، 2010 ، ص 113
2. مصطفى الشهابي، القومية العربية، القاهرة، 1969، ص 37.

3. سامي الكيالي ، الأدب والقومية في سورية، القاهرة، 1969 ص 66
- Jean Babelon, Impératrices syriennes, Paris, A. Michel, 1959, p.374
5. جان بابيلون ، المرجع سالف الذكر ، ص 59
6. فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ، بيروت ، 1975 ، ص 175
7. علي الحمامي ، إدريس ، ص 38
8. علي الحمامي ، إدريس ص 118
9. علي الحمامي ، إدريس ، ص 118
10. علي الحمامي ، إدريس ، صص 118-119
11. بابيلون ، مرجه سلف ذكره ، ص 60.
12. خراسان :تعني بالفارسية الشرق أما الغرب فهو خوار فاران.
- Raymond Furon, Iran, Perse et Afghanistan, Paris, Payot, p.513
14. علي الحمامي ، إدريس ، ص 34
15. ابن خلدون، العبر، جزء 3، بيروت، 1977، ص 104.
16. ابن خلدون، العبر، ص 704
- 17.
18. كريستنسان ، إيران الساسانية ، ص 90.
19. كريستنسان، المرجع سالف الذكر ، ص 104.
20. أحمد مختار النجار، علاقة أمراء الحيرة بعرب شبه الجزيرة كما يصورها الشعر، القاهرة، 1979، ص 85.

21. النجار ، علاقة أمراء الحيرة، ص 26.
22. كريستسن، إيران زمن الساسانيين، 130.
23. فيليب حتي، خمسة آلاف سنة ، ص 180.
24. علي الحمامي ، إدريس ، ص 181
25. علي الحمامي ، إدريس ، ص 128
26. النجار ، علاقة أمراء الحيرة، ص 28.
27. النجار ، علاقة أمراء الحيرة، الصفحة ذاتها.
28. علي الحمامي ، إدريس، ص 112